قوائم المحتويات متاحة على ASJP المنصة الجزائرية للمجلات العلمية
الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية
الصفحة الرئيسية للمجلة: www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/552

أزمة الإنسان المعاصر عند هربرت ماركيوز

The Contemporary human Crisis at Herbert Marcuse

د. حدة بعنون [1، *]
[1] جامعة ، أكلي محند أولحاج، بالبويرة-الجزائر.

Key words:

One-Dimensional Man
Science
Domination
Ideology
Radical Changement.

Abstract

The present study sheds light on some of the mechanisms of domination and some of its forms in contemporary society; we seek to clarify the relationship lurking in the trilogy: science - technology - ideology. Scientific and technological progress has turned into a tool for domination, oppression and exhaustion of poor people under various covers, including: democratization and respect human rights or achieving international peace, This means that science no longer serves human goals, and is no longer a tool for liberating people, but rather it employs ideological and repressive employment. Marcuse does not exclude the occidental society which is subject to the sur-repression in light of what he called productive ideology, which shrank the occidental human in one dimension including in production and consumption. The human in this society, has turned into a bundle of desires that must be satisfied, so the occidental modernity expressed, in the view of Marcuse, her inability to achieve those humanistic goals expressed by the era of lights.

معلومات المقال

تاريخ المقال:
الإرسال : 2020-07-14
المراجعة :
القبول : 2020-08-14

الكلمات المفتاحية:

الإنسان ذو البعد الواحد
العلم
السيطرة
الإيديولوجيا
التغيير الجذري.

ملخص

نسعى من خلال هذه الدراسة التي تسلط الضوء على بعض آليات السيطرة وبعض أشكالها في المجتمع الغربي المعاصر إلى تبيان العلاقة التي تلخصها ثلاثية: العلم – التكنولوجيا- الإيديولوجيا. فالتقدم العلمي والتكنولوجي تحول إلى أداة للسيطرة والقمع وإنهاك الشعوب المستضعفة تحت أغطية مختلفة منها: إرساء الديمقراطية واحترام حقوق الإنسان وتحقيق السلم الدولي؛ مما يعني أن العلم لم يعد يخدم أهدافا إنسانية، ولم يعد أداة لتحرير الإنسان، بل أصبح يوظف توظيفا إيديولوجيا وقمعيا ولا يستثني في ذلك ماركيوز المجتمع الغربي الذي يتعرض للقمع المضاعف في ظل ما سماه بالإيديولوجية الإنتاجية، التي قلصت الإنسان الغربي في بعد واحد وهو بعد الإنتاج والاستهلاك؛ فتحول الإنسان في هذا المجتمع إلى حزمة من الرغبات التي لابد من إشباعها. وبهذا عبرت الحداثة الغربية في نظر ماركيوز عن عجزها عن تحقيق تلك الأهداف الإنسانية التي عبر عنها عصر الأنوار كاحترام كرامة الإنسان ونشر قيم الحق والديمقراطية والمساواة هذا ما جعل ماركيوز يعيد النظر في الأسس التي بنيت عليها الحداثة الغربية وينقد المشروع الحداثي الغربي في جانبه السياسي والاقتصادي الأخلاقي.

* Corresponding author at: Akli Mohand Oulhadj University of Bouira - ALGERIA
Email : haddabanoun@yahoo.com

مقدمة

لقد أحدثت الثورة العلمية انقلابا في نظرة الإنسان للطبيعة والكون، إذ علّمته كيفية التفكير بطريقة جديدة، فلم تعد الطبيعة بالنسبة إليه سرا خاضعا للمعجزات والخوارق ، بل أصبحت أمرا معقولا خاضعا للتفسير، لأن اكتشاف الإنسان للقانون الذي تسير بمقتضاه الطبيعة كان يعني في نفس الوقت قدرته على التحكم فيها والسيطرة عليها، ولكن بعد التقدم المذهل الذي عرفته العقلنة التقنية والعلمية انتقل العقل من خدمة أغراض البشرية إلى خدمة إرادة القوّة التي نعني بها جل المؤسسات السياسية التي ساهمت في تحريف العلم عن هدفه الأصيل وتوجيهه نحو أهداف إيديولوجية، كانت نتائجه وخيمة على الإنسان الذي أصبح لا يتعرّف على ذاته من خلال هذه المؤسسات التي أوجدها هوّ بذاته. فالحضارة الصناعية الحديثة التي زعمت أنها برهنت على تمكن العقل من السيطرة على الواقع والظروف المحيطة به، عجزت في الحقيقة عن الاستمرار في السير على ذلك الخط العقلاني الذي رسمته، وتجلى ذلك بوضوح في ظهور الأنظمة التوتاليتارية: النازية والفاشية اللتان كلّفتا البشرية عناء الحرب العالمية الأولى والثانية. و نحن نعلم بأن تاريخ الإنسان هوّ تاريخ قمعه، لأن كل الأنظمة التي عرفها الإنسان عبر تاريخه الطويل لا تخلو من الهيمنة والسيطرة والطغيان، إلا أن القمع الذي يتعرض إليه الإنسان في ظل النظام الصناعي الحديث هوّ من أعجب أنواع القهر وأكثرها تسلّطا والأعجب من ذلك هوّ أن ضحايا هذا القمع هم الذين يدافعون عن هذا النظام ويطالبون باستمراره، لا لشيء إلا لأنه اكتسى صبغة عقلية يصعب على المرء اكتشاف اللاعقلنة والاستغلال البشع المتخفيان وراء ستار العقلنة الظاهرية

لقد قدم لنا كارل ماركس (1818-1883) **Karl Marx** نظرية نقدية ثاقبة حول ذلك الصراع الدامي بين الطبقة الكادحة وطبقة رؤوس الأموال والذي عرفه التاريخ طوال القرن التاسع عشر، إذ دعا من خلال هذه النظرية إلى ضرورة استرجاع الطبقة الكادحة لكرامتها الضائعة ولإنسانيتها المغتربة بيدها عن طريق الثورة العنيفة على الأوضاع السائدة من أجل تغيير علاقات الإنتاج وقواه، ورأى ماركس أن البروليتاريا هي ذلك البؤس الواعي بشقائه الروحي والمادي وذلك المجرد من إنسانيته والواعي بهذا التجريد، لذا سرعان ما تثور وهذه الثورة هي تعبير عن عدم قدرتها على مواصلة العيش في ظل تلك الظروف القاهرة، وجاءت الثورة البلشفية لتعبّر أحسن تعبير عن ذلك الرفض العظيم الذي قاده أولئك الذين تشبعوا بأفكار ماركس وأرائه النقدية. ولكن التجربة الماركسية السوفياتية خيّبت فيما بعد كل الآمال التي بعثها ماركس في قلوب الطبقة المحرومة والبشرية جمعاء، إذ عجزت الماركسية في هذا البلد عن تحقيق المساواة والسعادة للجميع، مما جعل لينين(1870-1924)**Linine** يعيد النظر في النظرية النقدية التي قدمها ماركس، حيث اكتشف أن هناك قشرة أرستقراطية على سطح الطبقة العاملة اشترتها الطبقة البورجوازية لتجعل منها سندا لها، ولكن هذه الظاهرة حسبه عرضية سرعان ما تزول والواقع أثبت العكس، إذ ما اعتبره لينين عرضيا هوّ الذي أضحى ثابتا وهذا ما أكده ماركيوز في دراسته للوضع في المجتمع الصناعي الحديث، إذ وضّح جيّدا أن كل المجتمعات خضعت للسيطرة والطغيان والقهر عبر التاريخ، ولكن المجتمع الصناعي الحديث برع في إخضاع أفراده وحقق في ذلك ما لم تحققه الأنظمة التوتاليتارية القديمة، حيث استطاع أن يلبس سيطرته طابعا عقليا يسقط عنها سلفا كل احتمال وجود معارضة أو ثورة. فالمجتمع التكنوقراطي قلم أظافر أصحاب المعارضة مسبقا وخدّرهم بمنوّم تحقيق الرفاهية والسعادة للجميع، ولجأ في ذلك إلى سد كل حاجيات أفراده وتغطية كل متطلباتهم مما جعل الثورة على هذا النظام الذي يثبت جدارته باستمرار مستحيلة، وكل من يدعو إليها مجنون لابد له من مسكّن ليهدأ أعصابه، لذا نتساءل: ما هي أشكال السيطرة التي فرضها المجتمع التكنوقراطي على الإنسان الحديث والمعاصر؟ وما هي الميكانيزمات والآليات التي يعتمد عليها لتكريس العبودية الإنسانية؟ إلى أي مدى ساهم هربرت ماركيوز بفلسفته في إنقاذ الإنسان الغربي الحديث والمعاصر من العقل التقني الأداتي؟

تكمن أهمية ماركيوز كمفكّر وكمنظّر وفيلسوف ناقد في أنه هوّ أوّل من تساءل عن أسباب تعذّر الثورة، بل واستحالتها في البلدان التي زعمت النظرية النقدية الكبرى أنها ستكون رائدة أقطار العالم إلى الاشتراكية وكان ذلك هوّ السبب الرئيسي الذي دفعنا إلى البحث في أراء هذا الفيلسوف الذي حاول أن يجدّد الماركسية في القرن العشرين عن طريق الدمج بين الأبعاد الثلاثة المعروفة في فلسفته وهي: البعد الهيجلي، البعد الماركسي والبعد الفرويدي، ومن خلال دراسته الانتقائية لهذه التيارات استطاع ماركيوز أن يكشف الستار عن آليات السيطرة وأشكالها الجلية في المجتمع الصناعي الحديث والمعاصر، ففيما تتمثل هذه الآليات وما هي أشكال السيطرة التي كُرست في ظل النظام الصناعي المعاصر حسب هربرت ماركيوز ؟

1ـ آليات السيطرة في المجتمع الصناعي المعاصر

أـ التكنولوجيا

يعرف ماركيوز التكنولوجيا بأنها "علم تحويل الأشياء الطبيعية إلى أدوات مروّضة من أجل استخدامها لخدمة مصالح اجتماعية " (**ماركيوز**، 1984) إذن منذ البداية يتضح لنا أن التكنولوجيا تقوم على منطق واحد هو منطق السيطرة أي: السيطرة على الطبيعة ومن ثمة السيطرة على الإنسان. فالتكنولوجيا في العصر الحديث لا تحدد علاقة الإنسان بالطبيعة وفقط، بل أصبحت تحدد حتى علاقات الأفراد بغيرهم، بل وعلاقة الدول ببعضها البعض، مما ظهرت ثنائية الدول المستعمرة والمستعمرة بكسر الميم والسيطرة التي تمارسها الأولى على الثانية من خلال إخضاع مجتمعاتها وتعذيبها

وتفقيرها وغسل دماغها ويقول ماركيوز في هذا: "إن التدمير والكدح ضروريان كشرط مسبق للتسلية والفرح"، (**ماركيوز**، 1984، **صفحة** 183) بمعنى أن الدول المتقدمة تضمن رفاهيتها باستنزاف خيرات الدول الفقيرة والمستضعفة وامتصاص دم شعوبها حتى النخاع، وبما أن التكنولوجيا تقوم على منطق السيطرة والإخضاع فهي إذن أولا وقبل كل شيء "سياسة". فالعلم، التقنية، التكنولوجيا والإيديولوجيا يشكلون وحدة متلاحمة لا تنفصم أبدا. لذا رأى ماركيوز أن: القنبلة الذرية اليوم تصنع في المخبر بجهود علماء مختصين ذوي مهارات فائقة، ثم تسلم إلى أيدي الجيش الذي ينفذ الجريمة بأمر من الساسة. فالمجموع الثلاثي (العلم، التقنية، الإيديولوجيا) ولّد الجريمة وما زال يغذيها عن طريق أحدث الوسائل وبهذا لا يمكن أبدا أن نعزل التكنولوجيا عن السياسة.

إن التقدم العلمي والتقني أصبحا أداة للسيطرة والقمع وإنهاك الشعوب المستضعفة تحت أقنعة متعددة منها: تحقيق السلم الدولي أو إرساء الديمقراطية أو احترام حقوق الإنسان التي انتهكتها هذه الدول التي تدعي الإنسانية ذاتها، فانهزام الفاشية الألمانية لايشير إلى نهاية الصراع العالمي، بل كان يعني تخلص المعسكرين من نقيض ثالث يمثل خطر على كليها وهذا الخطر هو الفاشية والنازية، ففي الوقت الذي انشغل العالم بجمع العظام وشتات الجرحى جلست الحكومتان السوفياتية والأمريكية لتعيدا النظر في ترتيب أوراق الصراع والبحث عن كيفية الهيمنة على العالم عن طريق زيادة مساحة الأنظمة التابعة أو المؤيدة أو المتعاطفة معها (**ستونرسوندرز**، 2003).

إن الحرب الباردة التي في الحقيقة حرب ساخنة سفكت دم الأبرياء، هي نتاج انحراف العقل عن العقل أي؛ كانت نتيجة لجنون العقل السياسي الذي وجه العقل التقني توجيها سلبيا انقلب على الإنسان الذي أوجد التكنولوجيا ذاته. فالرئيس الأمريكي إيزنهاور(1890-1969) D.Eisenhower يشرح جيدا فكرته عن الحرب الباردة ويقول في مؤتمر صحفي: "هدفنا في هذه الحرب (الحرب الباردة) ليس الاستيلاء على الأراضي أو إخضاع الآخرين بالقوة هدفنا أكثر من ذلك نحن نحاول أن نجعل العالم يصدق الحقيقة بالوسائل السلمية والحقيقة هي: أن الأمريكان يريدون عالما يعيش في سلام ... والوسيلة التي نستخدمها لنشر هذه الحقيقة تسمى عادة بالوسيلة النفسية، ويعرف هذه الأخيرة أيضا ويقول:"الحرب النفسية هي الصراع من أجل عقول وإرادات البشر" (**ستونرسوندرز**، 2003، **صفحة** 11) ومن خلال هذه المقولة نفهم أن الرئيس الأمريكي إزنهاور الذي يمثل العقل السياسي الأمريكي يشجع العقل التكنولوجي على الانحراف أي: يوجهه توجيها حربيا يهدف إلى تدمير البشرية جمعاء وليس إلى تحريرها من مختلف العوائق التي تعرقلها. ومن خلال التعريف الذي أورده عن الحرب النفسية التي هي صراع من أجل العقول والإرادات، يعني ممارسة غسل الدماغ وتخدير الوعي البشري وهذا يقتضي التفنن أكثر فأكثر في صنع وسائل الجريمة وقتل الضمير وليس فقط القتل الجسدي .

أضحت إذن ديناميكية التقدم لا تنفصل عن المحتوى السياسي حسب ماركيوز لذا قال: "أن الآلة هي الوسيلة، والغاية منها هي ترويض الطبيعة ولكن بعد التقدم الملحوظ امتد ترويض الطبيعة إلى ترويض الإنسان ذاته، بل إلى ألينته وتشيؤه" (**ماركيوز**، 1984، **صفحة** 191) فإذا أردنا أن تستقيم التكنولوجيا وتخدم مصالح المجتمع، علينا أن نقوم بثورة جذرية تخلصها من القوى المسيطرة التي استغلتها في إحلال الدمار. ولكن من سيقوم بهذا العمل الثوري لتحرير التكنولوجيا من القوى المجهولة التي تسفك دماء البشرية؟ هذا السؤال سيجيب عنه ماركيوز من خلال البديل الذي قدمه عن الثورة والذي سنتطرق إليه لاحقا.

بـ إمتهان الجريمة

لعل أهم خاصية تميزت بها الأنظمة التوتاليتارية الحديثة هي: ممارسة الجريمة والتفنن في كيفية أداءها على أحسن صورة، ولقد أضحى هذا النظام قريبا إلى النظام الفاشي الذي سفك دم البشرية وحوّل العالم إلى مستنقعات الدماء والمقابر الجماعية وهذا من خلال عمليات القمع والإكراه اللتان تمارسهما على المجتمع حتى قال ماركيوز: " لقد تحولت قوى الأمن والنظام والدفاع عن القانون إلى قوة فوق القوانين، وفي العديد من المدن بات العتاد العادي للشرطة يشبه عتاد رجال الصاعقة النازيين" (**ماركيوز**، **الثورة والثورة المضادة**، 1973). فالأنظمة الديمقراطية الحديثة حسب ماركيوز تعتبر الجريمة تسلية تقدمها وسائل الإعلام من دون أن تقشعر لها أبدان الحكام، أما أجساد المتظاهرين فتواجه بالقنابل والرصاص باعتبارها أجساما غريبة دخيلة ليست تابعة لهذا النظام، لا لشيء إلا لأنهم لا يتحدثون بلغة النظام ولا يتصرفون وفقا لما يسنه. أما في الدول المستعمَرة أصبحت الجريمة مهنة، حيث أوجد النظام الصناعي الغربي منضمات خاصة تمتهن التعذيب وتمارس الاضطهاد وتزرع الرعب والهلع في أوساط الشعوب والدول المستضعفة، فهاهي أفغانستان، العراق، فلسطين تتعرض للسحق والإخلاء تحت غطاء تحقيق الديمقراطية.

جـ الديمقراطية ولعبة التسامح

يرى ماركيوز أن الديمقراطية التي أُوهم بها الأفراد ماهي إلا ديمقراطية شكلية. فنحن نسمع اسم "الديمقراطية" دون أن نمارسها ميدانيا. فأن تكون ديمقراطيا يعني: أن يسمح لك بحرية التعبير، حرية الإضراب، حرية العمل، الانتخاب... إلخ، ولكن إذا عدنا إلى الواقع الملموس نجد أن المواطن يخضع للقمع والخنق، فالفرد في الولايات المتحدة التي تمثل قلب التطور العلمي والتكنولوجي يملك الحق في الاضطراب والتظاهر ومعارضة السياسة المنتهجة من قبل المسؤولين حسب ماركيوز، ولكن الحقيقة المتخفية وراء الستار تكشف أن هذا النظام الرأسمالي يميز بين نوعين من المعارضة، إذ هناك معارضة كحدث طقسي ومعارضة أصيلة (**حسن**، 1993)

فالنوع الأول نقصد به تلك المظاهرات التي تجب شوارع أمريكا من حين لآخر وهذه المعارضة يسمح بها النظام لأنها عبارة عن تفريغ للشحنة المكبوتة، هذا من جهة ومن جهة أخرى، تؤكد الطابع الديمقراطي لهذا النظام، فهي لا تمس البنية التحتية للنظام ولا الملكية الخاصة ولا تهدد الأمن الداخلي للبلاد، ثم هي مجرد حدث طارئ لا يعتمد على قاعدة جماهيرية أي: طبقة تجمعها مصالح مشتركة تسعى لتحقيقها مهما كلفها الأمر كالطبقة البروليتارية التي حدثنا عنها ماركس مثلا. يعتمد النظام الرأسمالي حسب ماركيوز على وسيلة في غاية الخطورة وهي: "لعبة التسامح" التي من شأنها أن تخدر وعي القوى المعارضة وتجعلها مندمجة داخل منظومة المجتمع القائم، بالتالي يختزل منها عنصر الرفض والنقد، وتكمن خطورة "لعبة التسامح" في إيهام الناس بإمكانية قيام إصلاحات من شأنها أن تحسن الأوضاع من دون اللجوء إلى الثورة الجذرية والعنف كما يمكنها أن تؤدي إلى تحييد القوى التغييرية التي بإمكانها أن تتصدى للنظام، حيث تحدث هناك تسامحا بينها وبين الحكومة، ويتم هذا التسامح في إطار الديمقراطية القمعية طبعا التي ينشدها النظام. أما الحقيقة المتخفية وراء ستار الديمقراطية القمعية فواضحة وضوح الشمس، لأن النظام لا يتسامح مع كل أشكال المعارضة، بل يتسامح فقط مع المعارضات القشرية بتعبير ماركيوز والتي لا تمس بنية النظام ولا تزعزعها، أما المعارضة الجذرية الأصيلة التي تهدد كيان النظام القائم وتعده بالدمار الشامل وإحداث التغيير الجذري فتعتبرها حركات متطرفة يجب قمعها ومسح وجودها على أرض الواقع أو تعتبرها حسب ماركيوز شيوعية معادية للنظام الرأسمالي.

د. وسائل الإعلام الجماهيرية

رأى ماركيوز أن النظام الصناعي المعاصر يمارس الضبط والرقابة التامة على وسائل الإعلام الجماهيرية، وهذا ما يسمى بالديكتاتورية الإعلامية، بحيث أصبحت الصحافة تسكت عن الجرائم البشعة التي تقترفها الإيديولوجيات القائمة في حق الشعوب المستضعفة، فلغة الصحافة في نظر فيلسوفنا هي: لغة منسقة تقوم بجمع المتناقضات المختلفة وتوحد بين الإبادة والرفاهية، وهذه اللغة المتناغمة تمارس نوعا من التنويم المغناطيسي على مختلف فئات المجتمع.

فلنلاحظ مثلا العبارة التي أوردتها الصحافة الأمريكية: "الحرب على العراق مجرد عملية جراحية سريعة" "ففي الحقيقة العملية الجراحية السريعة مازالت تسفك دماء الشعب العراقي إلى يومنا هذا. ورغم الوجه الوحشي الذي ظهر عليه العقل مازال الرأي العام يؤمن بما تتفوهه الصحافة لأن هذه الأخيرة استطاعت أن تغسل عقول الناس. فكل المصطلحات، الألفاظ والعبارات التي توردها وسائل الإعلام الجماهيرية غرضها الأول والأساسي حسب ماركيوز هو: إحداث اقتران بين: السياسة ـ التقنية ـ الجريمة والهدم، لذا قيل أن" من يمتلك الإعلام بوسائله وأدواته يمتلك الحقيقة لأنه سيفرض الحقيقة التي يريدها على أرض الواقع " (**الدباغ**، 1998)

إن الإعلام في استطاعته أن يوقظ الوعي أو أن يخدره حسب الوضع القائم والسياسة المنتهجة، وهذا يدخل في إطار الحرب النفسية التي قال عنها ماركيوز: " اللاعنف هو شكل آخر من أشكال العنف أساسا، إذ يمكن أن نحارب العدو وننال منه من دون أن نقص أذنيه أو رجليه أو يديه ودون أن نعذبه"" (**Marcuse, 1968**)، لأن هدف الدعاية الإعلامية هي: إقناع الناس بطريقة غير إرهابية من أجل تغيير رأيهم حول قضية ما وتحويل سلوكهم من اتجاه معين إلى اتجاه آخر مخطط له مسبقا.

يقتبس ماركيوز بعض العبارات التي يراها متناقضة من جريدة The Time الأمريكية منها: "الحركة العاملة تسعى إلى تنسيق الصواريخ(...) مخبأ فحم ضد الإشعاعات الذرية" (**ماركيوز، الإنسان ذو البعد الواحد**، 1984، **صفحة** 127) فيتساءل عن الرابطة التي تجمع بين المصطلحات التالية: الطبقة العاملة، التنسيق والصواريخ ؟ فماركيوز يؤكد أنه لا يمكن أبدا الجمع بين هذه المصطلحات، لأننا نعلم جيدا أن الصواريخ والأسلحة النووية وجدت لإحلال الهلاك والدمار. فالحضارة الصناعية تجني الغنى عن طريق القتل، إنها تختار مفرداتها وتنظم عباراتها بشكل يجعل الجرائم والأكاذيب تفلت عن الانتباه"...

لغة الصحافة تسعى دائما إلى خلق الانسجام بين السياسة ـ التقنية والقواعد المسلحة وتجمع المتناقضات في وحدة ملتحمة لتخلق جوا مسالما يلتقي فيه التدمير والإبادة، الحماية والديمقراطية والعلم والتقنية مع الدعاية الإعلامية لتخدير الوعي الفردي.

2. أشكال السيطرة في المجتمع الصناعي المعاصر

أ. السيطرة التكنوسياسية

سبق وأن أشرنا إلى التعريف الذي قدمه ماركيوز عن التكنولوجيا حيث ربطها بمبدأ السيطرة، لأن الإنسان أوجد التقنية كي يخضع الطبيعة لإرادته ويسخر مواردها لخدمة أغراضه الخاصة، ولما بلغ التطور التكنولوجي أشده كان لابد من أن ينقلب السحر على الساحر، إذ تحولت التكنولوجيا من مجرد أداة في متناول يد الإنسان إلى أداة للسيطرة عليه وقمعه. فالتكنولوجيا في العصر الحديث تمارس قمعا كليا على الفرد وهذا القمع يتم باسم العقل ولأول مرة في تاريخ البشرية يصبح القمع مقبولا، بل ويدافع عنه ضحاياه أنفسهم بتعبير ماركيوز، وحدث كل هذا نتيجة الإمكانات الضخمة التي يوفرها المجتمع الصناعي المتقدم بجهازه الإنتاجي الذي لم يستطع أن يقضي فقط على الندرة التي يشكو منها الفرد، بل حقق وفرة في الإنتاج وخلق للإنسان حاجيات جديدة، مما جعله يستطيع أن يمد صلة وثيقة بينه وبين الجماهير التي

لا ترى فيه إلا نظاما جديرا على تلبية الحاجيات من دون أن يكشفوا عن اللاعقلنة الكامنة وراء عقلنته المسيطرة، لذا يقول ماركيوز: "فالآلة التي هي عبيد استعملت لإنتاج عبيدا آخرين وهم الذين يمثلهم المجتمع البشري" (**ماركيوز، الإنسان ذو البعد الواحد**، 1984، **صفحة** 191).

استطاع المجتمع الصناعي الحديث أن يضمن الرفاهية والحياة الرغدة لعدد هائل من الأفراد، لذا بقي الإنسان ملجوما وغاب عنه بُعد الرفض والنفي، إذ كيف يثور الإنسان ضد هذا النظام الذي يحقق له حياة أسعد ويثبت جدارته باستمرار؟ فالثورة في مثل هذا الوضع تصبح لا معقولة وكل من يدعو إليها مجنون في نظر العامة ولا بد له من منوّم لإسكانه.

لقد متن النظام الصناعي المعاصر الصلة بين الفرد والآلة بحبل غليظ لا يمكن قطع وصاله. فنحن لا نستطيع اليوم أن نفصل التلفاز والمذياع عن غرفة النوم أو المطبخ مثلا، كما لا نستطيع أن نستغني عن السيارة وآلة الغسل، وكل هذه الأدوات ليست ذات وظيفة قمعية في حد ذاتها كما يقول ماركيوز، بل فقط لأنها منتجات تخضع لقوانين السلعة أصبحت جزء مندمجا في حياة الأفراد عن طريق الشراء وهذا الأخير يسمح بتحقيق الرأسمالية (Marcuse, Vers la Libération au - delà de l'Hhomme Unidimentionnel, 1969).

أصبحت التكنولوجيا في العصر الحديث أداة سيطرة ليس إلا فعوضا أن تعمل على تحرير الإنسان عملت على إخضاعه، ونحن حين نتحدث عن التكنولوجيا لا نقصد الآلة، بل نقصد القوى التي تسيّر هذه الأخيرة والتي وجهتها إلى أهداف سياسية- عسكرية لتدمير البشرية ويقول ماركيوز في ذلك: " عندما ينكب رجال العلم على سبيل المثال على مشكلة الإبادة الجماعية الباعثة على القلق فيجرون حسابات رياضية عن كيفية القتل بصورة مثلى ويحسبون المسافات التي يمكن أن تغطيها الإشاعات ويجربون تحمل الأجسام في شروط غير طبيعية، يكون العلم قد انساق إلى التضليل الأسطوري" (**ماركيوز، الإنسان ذو البعد الواحد**، 1984، **صفحة** 209). أي أن ماركيوز يحاول أن يبرهن عن كيفية انحراف العلم عن هدفه الإنساني.

هكذا إذن لا نستطيع أن نفصل التكنولوجيا عن السياسة، فالمجتمع الصناعي الحديث لم يصنع التلفاز والمذياع إلا ليمتّن حبل الصلة بين السلطات والجماهير أي: لتوحيد الرأي العام والخاص وجعله تابعا له، لذا يقول جون غورفيتش: "أنه لم تعد البنى الاجتماعية هي التي تستعمل التقنيات لصالحها، بل المجموعات التقنية هي التي تشكل المؤسسات البشرية على صورتها وتسخرها لخدمتها وتحدد البنى الاجتماعية وتنظمها" (**الاختصاصيين**، 1993) ولكن لا ننسى عندما نتحدث عن التقنيات أن نكشف النقاب عن السلطات الخفية التي تمتلكها وتوجه تناسقها. التكنولوجيا لا تنفصل عن السياسة ووجودها مرتبط حتما بوجود السيطرة ويؤكد ماركيوز هذا الزعم بقوله أن: " الحضارة الصناعية المتقدمة حققت توازنا ملحوظا بين الحرية والاستبداد أو الاضطهاد وبين وفرة الإنتاج والتدمير، بين التقدم والتراجع والانكماش" (**ماركيوز، الإنسان ذو البعد الواحد**، 1984، **صفحة** 164). فنحن حين ندرس واقع العصر الحديث، نجد أن التكنولوجيا فعلا خلقت ظروف الحياة للفرد ولكنها خلقت إلى جانبها شروط الموت أيضا، وهذا يظهر في التطور الفائق في وسائل التدمير عددا وعتادا ونوعية رغم خطر الفناء الذي هدد الإنسانية جمعاء خلال الحربين العالميتين الماضيتين.

لم تعد التكنولوجيا قوة محررة للإنسان، بل أصبحت عقبة كبيرة في وجه السلام حين وظفتها القوى اللاشخصانية التي تتحكم فيها توظيفا سلبيا تجلى في سحق الشعوب وسفك دماء ملايين الأبرياء تحت أغطية متنوعة. ورغم كل هذه الصفات السلبية التي أفرزها مجتمع التقنية إلا أن الإنسان ظل يؤمن بالتكنولوجيا كأداة لتحقيق الرفاهية والسعادة التامة، فالميتافيزقا الجديدة استطاعت أن تختزل الإنسان إلى بعد واحد، ألا وهو البعد الحيواني الذي يتلخص في الإنتاج والاستهلاك والتكاثر وأضحى بُعد الرفض والثورة غائبا، بعد أن خمد الوعي الذي يدرك ظروف العبودية ومن ثمة السعي إلى تغييرها، فماهو السبيل إلى التحرر ؟ ستتضح إجابة هذا السؤال من خلال انبعاث ذات تاريخه جديدة تحمل فانوس الثورة وسنفصل في هذا من خلال عرض إستراتيجية ماركيوز الجديدة عن الثورة.

ب- السيطرة الفكرية (تزييف الوعي)

تتجلي هذه السيطرة في تخدر الوعي الإنساني، إذ لم يعد الفرد يفكر إلا في نطاق ما هو موجود ولا يملك بُعد النظر، حيث غاب عنه عنصر النقد، وأصبح الفرد يتصرف كيفما يأمره النظام ورأى ماركيوز أن الزعيم الروحي للماركسية لينين قد نبه إلى الخطر الذي يمكن أن يداهم الماركسية حين أشار إلى وجود طبقة قشرية أرستقراطية على سطح الطبقة العاملة، وهذه القشرة اشترتها الرأسمالية الاحتكارية بفضل الأرباح التي تحصل عليها من المستعمرات، إلا أن لينين بدا له هذا الخطر عرضيا وسرعان ما يزول، أما فيلسوفنا فقد أثبت العكس تماما، حيث رأى أن كل المجتمعات خضعت للقمع والطغيان والقهر عبر مرِّ العصور ولكن المجتمع الصناعي الحديث يخضع أفراده لقمع يبدو عقليا في الظاهر، إلا أننا إذا بحثنا في عمق الحضارة الصناعية نجد أن هذه السيطرة هي لا عقلية في الأساس.

إن السيطرة التكنولوجية استطاعت أن تلبس طابعا عقليا يسقط عنها مقدما كل احتمال وقوع احتجاج أو معارضة، فهي قلمت أظافر أصحاب المعارضة مسبقا و خدرتهم بمنوم فعال ألا وهو: تحقيق الرفاهية والمعيشة الحسنة لكل فرد. وبما أن مسعى الإنسان منذ زمن طويل هو تحقيق الحياة الرغدة، والتكنولوجيا وعدته بتحقيق ذلك، استسلم الإنسان للتكنولوجيا وتنازل عن كل صلاحياته للتقنية من

أجل تحقيق السعادة. ونحن حين نتحدث عن التقنية نعني الإيديولوجيا التي تستعمل التكنولوجيا لغرض سلبي وهو: تخدير وعي الفرد وتنويمه ...إذ غاب بُعد النقد والمعارضة ليسود بُعد التحفظ والامتثال، وأصبحت كل محاولة لتغيير النظام الذي يثبت قدرته بجدارة على استيعاب الفرد هي التي تخرج عن حيز المعقول. فالطابع العقلي الذي لبسته الإيديولوجيا التكنولوجية هو طابع لامعقول، لأنه لايؤدي إلى خلق إمكانات وفضاءات جديدة لتطوير الحاجات والمواهب الإنسانية" (**ماركيوز، الإنسان ذو البعد الواحد**، 1984، **صفحة** 10)

إن العقلنة التكنولوجية تلخص الفرد في حزمة من الرغبات التي لابد من إشباعها كالجنس والإنتاج والاستهلاك، أما الحرية في المجتمع الصناعي الحديث ما هي إلا وهم. أكد ماركيوز أنه إذا كان العامل ورب العمل يشاهدان نفس البرنامج التلفزيوني وكانت ابنة المدير والسكرتير ترتديان نفس الملابس الأنيقة ويسوقان سيارة من نفس النوعية، هذا الوضع لا ينفي وجود الطبقية، بل هذا الزوال هو زوال قشري، فتحسن وضع أفراد المجتمع خاصة الطبقة العاملة منهم هو لعبة تضمن بها الإيديولوجيا القائمة سيطرتها واستمرارية سيادتها. فالمجتمع الصناعي الحديث قفز قفزة صاروخية إلى الأمام في تزييف حاجيات الأفراد وتخدير وعيهم، فعوضا أن يكون الفكر هو القوة المضادة للواقع الذي يسوده الطغيان، أصبح يؤكد هذا الوضع باستمرار لأن الواقع التكنولوجي امتص البعد النقدي الرافض. " إن الأنظمة الديكتاتورية على مر العصور والأزمنة لم تقض على البعد الرافض والنافي ولكن الأنظمة الديمقراطية ذات الطابع التكنولوجي أو التقني مشت قدما إلى الأمام في تزييف الوعي" (**ماركيوز، الإنسان ذو البعد الواحد**، 1984، **صفحة** 62).

ج. السيطرة الثقافية

يري ماركيوز أن الأدب والفن جديران على تحقيق سعادة الفرد ولو مؤقتا عن طريق الخيال، حيث يتجلى فيه الصراع القائم بين الواقع العيني وما ينبغي أن يكون، فالخيال حسب ماركيوز هو الذي يقوم بتعرية الواقع ويبين خلخلة أركانه الأساسية ويكشف عن الحقيقة المزيفة التي ظل الناس يعبدونها، ولكي يكون الفن والأدب بهذه الطريقة يجب أولا وقبل كل شيء أن يحتويا عناصر الرفض والمعارضة في الأسلوب اللغوي الذي يتخذانه للتعبير، .لكن ماركيوز يقول: "في حضارتنا الصناعية الرفض الأكبر أمسى مستحيلا وعالم الأعمال الجامح قد ابتلع أو امتص البعد الآخر (**ماركيوز، الإنسان ذو البعد الواحد**، 1984، **صفحة** 99).

لقد أصبحت العقلنة والشر وجهان لعملة واحدة، إذ يصعب الفصل بينهما مما جعل العمل الفكري بضاعة تعرض في السوق ليس إلا. فإيديولوجية التصنيع غزت كل أبعاد الإنسان حتى الماضي الذي يمثل الذاكرة المضادة عمدت العقلنة الحديثة إلى إفراغه من التراث النقدي الرافض الذي يحي الوعي الفردي. ويعطي ماركيوز أمثلة على ذلك "بالبيان الشيوعي" الذي أصدره ماركس وإنجلز F.Engels(1895-1820) فهذا الكتاب حسب فيلسوفنا ينتمي إلى تراث قديم كتب بلغة ثورية، تعبر عن التناقضات التي يحفل بها المجتمع ويقول عنه: "من يتصفح هذا الكتاب يجد أن المصطلحات الأساسية التي استعان بها ماركس وإنجلز هما: البروليتاريا والبورجوازية " وهما طبقتان متعارضتان، فتمثل الأولى عامل المعانات والاضطهاد الشامل، كما تمثل أيضا عامل الانتصار على الاضطهاد، أما الثانية فتمثل عامل السيطرة على الطبيعة وعلى البروليتاريا إلا أنها تحمل بذور فنائها، لأنها قامت على سحق الطبقة العاملة ذات الأغلبية الساحقة، فلغة البيان الشيوعي هي لغة ملغمة تدفع الأفكار إلى الممارسة والعمل التاريخي ولا تجر الفكر داخل مفاهيم مختصرة تمنع الفكر من التطور والتغيير، يشير ماركيوز أيضا إلي لغة توكفيل(1805-1859) A TOQUEVILL وجون ستيوارت ميل(1806-1873) J.S.MILLE : فكتب هؤلاء في نظره تعبير عن إرث ثقافي ثوري، أما اللغة الأدبية في العصر الحديث هي لغة تملى من طرف السلطات التي حكمت، فهي التي تحدد المفاهيم والقيم. إن اللغة السائدة في عصر التكنولوجية هي لغة مقفلة لا توضح شيئا ولا تبرهن على شيء، بل غرضها الأول والأخير هو إبلاغ القرار أو الأمر أو الحكم، فوجود التلفيزيون في غرفة النوم والمطبخ حسب ماركيوز هو دليل قاطع على غياب لغة النفي والمعارضة وسيادة اللغة الشمولية، لغة البعد الواحد.

د. السيطرة اللغوية

لقد أوضح ماركيوز أن المجتمع الصناعي المعاصر يعيش في عالم إنشائي مغلق، عالم يخلقه أصحاب القرار الذين يحصرون اللغة والمفاهيم في ترجمة الواقع وليس تقييمه؛ مما يعني أن السيطرة امتدت حتى إلى المجال التعبيري الإنشائي حيث أصبحت لغة الفرد لغة خالية من الحياة أوهي لغة ميتة إن صح التعبير، ويقول ماركيوز في ذلك: " هي لغة عارية من التوتر والتناقض والتطور والصيرورة" (**ماركيوز، الإنسان ذو البعد الواحد**، 1984، **صفحة** 16).

يبرهن ماركيوز عن ضياع اللغة الملغمة في المجتمع الصناعي المعاصر من خلال دراسة الوضع في كلتا الكتلتين الشرقية والغربية، فيؤكد مثلا في الإتحاد السوفياتي نجد أن الحزب الذي يدافع عن العمال يسمى بالحزب الاشتراكي، وهذا الأخير يصف الانتخابات المزورة بالانتخابات الحرة، أما في الولايات المتحدة يموت الناس في سبيل الدولة الديمقراطية في حين هذه الأخيرة هي ديمقراطية استبدادية، ولكن رغم هذا التمويه الذي يمارسه رجال السياسة بالتنسيق مع وسائل الإعلام الجماهيرية، إلا أن الرأي العام والخاص أصبحا يتقبلان الوضع كما هو، وهذا دليل على نجاح المجتمع الصناعي في القضاء على التناقضات التي تسكن المجتمع البشري.

لقد اكتسى تشيؤ الإنسان صبغة معقولة، لذا أصبح الاستبداد ديمقراطية والعبودية مساواة في نظام محكم ومعقلن بدرجة كبيرة ويقول ماركيوز في هذا: " إن القنبلة النظيفة والإشعاعات الذرية اللامؤذية هي تعويض للقنابل الذرية والإشعاعات النووية التي أودت بالبشرية إلى الدمار خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية " (**ماركيوز، الإنسان ذو البعد الواحد**، 1984، **صفحة** 127) بمعنى حرب الكلمة.

يرى ماركيوز أن المجتمع الصناعي الحديث يلجأ إلى استعمال الاختصارات لتمويه الوعي البشري مثلا: استعمال عبارة "NATO" التي تدل على منظمة معاهدة الشمال الأطلسي، فيرى ماركيوز أنه لو استعملت هذه العبارة دون تقليصها لتساءل البعض حول انضمام اليونان وتركيا إليها، ثم اختصار اتحاد الجمهوريات السوفياتية إلى عبارة "URSS" يقصد به إخفاء التناقض الكامن بين الاشتراكية والسوفيات وهناك العديد من العبارات اللغوية المختصرة لا لغرض إلا لإخفاء المعنى الحقيقي الظاهر لهذه الإنشاءات اللغوية، فتقليص هذه العبارات المثقلة بالمعنى إلى مجرد أحرف تعقّد المضمون الذي تحمله الكلمة.

يلخص ماركيوز الوضع الذي آلت إليه اللغة في المجتمع الصناعي الحديث في العبارة التالية: "هي لغة مناهضة للنقد، غير جدلية، بلا تاريخ، إجرائية سلوكية، طقسية تسلطية سحرية تنويمية..." (**حسن**، 1993، **صفحة** 193)، لذا فهو يدعو إلى ميلاد لغة ماورائية وهذه الأخيرة هي اللغة الثورية التي يلخصها في لغة الزنوج والهيبز والفيتو ولغات جميع الأقليات المضطهدة.

فمن خلال هذا العرض يبدو أن الطريق إلى التغيير مسدودا بما أن المجتمع الصناعي الحديث استطاع أن يفرض رقابة محكمة على جل أفراده، لكن مع ذلك يقول ماركيوز إن الأمل سينبعث من خلال تلك الطبقات التي لم تستطع الإيديولوجية التكنولوجية أن تمد سيطرتها عليها ويسميها ماركيوز باليسار الجديد فما هي الفئات التي يضمها اليسار الجديد عند ماركيوز وكيف لهذا اليسار أن يحرر المجتمع الغربي من العقل التقني الأداتي ؟

3ـ اليسار الجديد والثورة

أـ المطاردين، المنبوذين والأعراق المختلفة

وتضم هذه الشريحة كل المقهورين من مختلف الأجناس والأعراق المختلفة: كالسود والهيبز والفيتو في أمريكا، كما تضم أيضا العاطلين عن العمل والعاجزين عنه، فهذه الجماعات حسب ماركيوز توجد خارج اللعبة الديمقراطية وهي تمثل قوة ثورية لأنها تعيش على هامش التاريخ، فأوضاعها مزرية ومستواها المعيشي منخفض جدا في الوقت الذي يعاني أصحاب الامتيازات التخمة. فالسود والفيتو والهيبز هم شرائح اجتماعية لزالت مهمشة تعاني الاضطهاد والمطاردة والتمييز العنصري، وماركيوز يعتبر هذه الفئات ثورية، لأنها لا تتمتع بالسلع الاستهلاكية التي ينتجها الجهاز الصناعي المتقدم ولم يخدر وعيها ولم تقلم أظافرها " لأن الرأسمالية عجزت عن الوصول إلى الأكواخ والمنازل القصديرية، فاختلال التوازن بين الغنى الفاحش لأصحاب الامتيازات والفقر المدقع لهذه الشريحة الكادحة جعلها تثور ضد هذا النظام الذي يكرس العبودية في ظل الوفرة الإنتاجية " (**Marcuse، Fin de l''Utopie، 1968**، صفحة 44).

بـ الطبقة العاملة الجديدة

وهذه الفئة يقسمها ماركيوز إلى قسمين: طبقة تضم المثقفين من جماعات تابعة لحركة الحقوق المدنية خاصة من عناصر راديكالية من الشباب والمثقفين مثل: الشعراء والكتاب الذين لا يملكون امتيازات وأماكن مرموقة في الولايات المتحدة، وفئة ثانية تضم ما يسميه ماركيوز: الطبقة العاملة الجديدة وتتكون من التقنيين والمهندسين والأخصائيين العلماء الذين يعملون في سلسلة حلقة تطور الإنتاج المادي، فهذه الطبقة حسب فيلسوفنا يمكن أن تشكل نواة ثورية حتى وإن احتلت مكانة معتبرة في المجتمع الصناعي المتقدم ولكن من جهة أخرى يصفها ماركيوز بأنها هي: " الطفل المدّلل للنظام ..." (**Marcuse, Vers la Libération au - delà de l'Hhomme Unidimentionnel, 1969, p. 43**) ، فهي تمثل طبقة ثورية لأنها تعاني كثيرا من الاستغلال، إذ يسعى النظام القائم إلى استنزاف جهودها، لذا لن تندمج بسهولة مع النظام وسرعان ما تعبر عن تذمرها عن طريق الثورة.

أما الفئة الثانية من الشريحة المثقفة فيلخصها ماركيوز في الطبقة الطلابية التي اعتبرها قاعدة ثورية فعالة وهي التي تستطيع أن تقود النضال إلى النهاية والانتصار، فهم الطليعة الجديدة لماركسية القرن العشرين. ويؤكد ماركيوز أن الطلبة في العالم الثالث هم الذين قادوا الشعب إلى الثورة وهم الذين يخوضون المعارك ضد الإرهاب وهم وحدهم الذين يصنعون انتفاضة الشعب ويعرّضون أجسادهم للخطر والرصاص. " أما الطلبة في العالم المتقدم مازالوا يستندون إلى الطبقة العاملة في عملهم الثوري ونسوا أن لهم قاعدة خاصة تتجذر في البنية التحتية للنظام القائم وهذه البنية ممثلة في الأحرام الجامعية، ثم إن هذه القاعدة اتسعت لتشمل كل المؤسسات السياسية والاقتصادية، التي تستعين باليد العاملة المتعلمة. فالطلبة باعتبارهم فئة مثقفة يمثلون الوعي الثوري، والمثقف يجب أن يعي ظروف عبودية مجتمعه ومن ثمة تغييرها تغييرا جذريا.

حين يتحدث ماركيوز عن الثورة الطلابية يرى أنه لا يتعلق الأمر بتسييس الجامعة لأن هذه الأخيرة هي مؤسسة سياسية أصلا، بل يتعلق الأمر بتسييس مضاد للجامعة " (**Marcuse، Fin de l''Utopie، 1968**، صفحة 44).

يركز ماركيوز اهتمامه على الطلبة كقوّة ثورية طليعية لأنها تتمتع بالوعي الفكري الذي يكشف عن تلاعبات النظام القائم ومن ثمة التنديد به هذا، وبعد مرور أربع سنوات عن إصدار كتابه المعروف: ""L'Homme Unidimensionnel" عام 1964م، جاءت انتفاضة الطلبة خاصة في فرنسا عام 1968م أين حمل الطلبة شعارات مختلفة أهمها: الأسماء الثلاثة التي بدأت بحرف"M "، مشيرين بذلك إلى الثالوث الجديد ممثلا في ماركس ماوتسي تونغ(1893-1976) Mao Zedong وماركيوز. وأصبحت السلطة تتساءل حول ما إذا كانت هذه القوة المضادة قادرة على فرض ذاتها في المجال السياسي لفترة طويلة، هل هي جديرة بالتحكم بزمام الأمور حتى تتقلد مقاليد الحكم ؟ وينتهي ماركيوز نهاية تشاؤمية، حيث يرى أن هذه الشرائح المذكورة كلها لا تمثل طبقة متحدة إتحادا كليا مثل البروليتاريا، لأنها لا تجمعها مصالح مشتركة، فهي شتات من الشرائح الاجتماعية التي اختلف وعيها فالتاريخ ألغى هذا الزعم لأن السلطة القائمة ترتكز في يدها القوة الجديرة بامتصاص المعارضة، فهي تستعمل أساليبا وحشية للقضاء على عناصر الشعب التي تعبر عن حساسية جديدة "حساسية إيروسية تنبذ الروح الوحشية في الإنسان وتدعو إلى زيادة التعقل ".. إن اليسار الجديد فتي لا يملك الوسائل الدفاعية إلا أجساد المتظاهرين في الشوارع والتي واجهتها السلطة القائمة بالرشاش والقنابل، ومن شراسة آلة السلطة من خلال أعمال العنف التي مارستها على اليسار المعارض ظهر في أوساط هذا الأخير صراع وانشقاق، مما أدى إلى تفاقم نقاط الضعف لدى هذا الأخير وكل هذا ناتج عن افتقاره للتنظيم المحكم وكونهم يتحركون داخل أفق مفتوح الأهداف والإستراتيجيات على حد تعبير ماركيوز، أما النظام القائم فيزداد اتحادا وتلاحما باستمرار، لذا يعود ماركيوز ليؤكد الدور الذي يمكن أن تلعبه الحركات التحررية في العالم الثالث في تغيير الوضع داخل المجتمع الصناعي الجديد وقبل أن نتحدث عن الحركات التحررية في الخارج نود أن نشير إلى شريحة أخرى من شرائح المجتمع، اعتبرها ماركيوز ثورية خطيرة على النظام وهي حركة تحرر المرأة كشريحة ثالثة يضمها إلى يساره الجديد.

ج- العالم الثالث

لما رأى ماركيوز أن الأنظمة التوتاليتارية الحديثة أرست كيانها ومتنت قواعده بحيث لا يستطيع اليسار الفتي أن يزعزعه التفت إلى ما حدث في العالم الثالث من ثورات وانتفاضات لتحقيق الاستقلال ورأى أن الحركات التحررية في هذا الوطن يمكن أن توجه ضربة قاضية للنظام الشمولي الحديث، ولكن باتحاده مع القوى الثورية الداخلية التي عرضناها من قبل وسنحاول أن نعرض هذه القوى المعارضة خارج النظام الشمولي .

يلخص ماركيوز هذه القوى إذن في الحركات التحررية في الدول المستعمرة التي تعتمد عليها الدول الاستعمارية في تحقيق رفاهيتها، إذ تستغل ثرواتها وتجعلها قواعد عسكرية لضرب أعدائها، غير أن ماركيوز يقع في تشاؤم ثانية حين رأى أن الحركات التحررية في الدول النامية ليست قادرة على تسديد الضربات للدول الاستعمارية رغم أن التاريخ يحفظ في ذاكرته العديد من الضربات التي سددتها الدول المتخلفة للدول الاستعمارية ومثال ذلك الهند الصينية التي قهرت فرنسا أولا وأمريكا ثانيا، بحيث استطاعت أن تؤثر تأثيرا بالغا على جهازهما العسكري بفقدان أكبر المؤطرين العسكريين، كما أضعفتهما اقتصاديا، مما أدى إلى ظهور تيارات شعبية ذات اتجاه رديكالي. يري ماركيوز أنه إذا تم إتحاد بين القوى التحررية في العالم الثالث والحركات الشعبية الداخلية للأنظمة البروليتارية يتم فك براغم جهازه القمعي.

4. البديل الماركيوزي عن الثورة

أ- الفن كأداة للثورة

دعى ماركيوز إلى بزوغ ذات تاريخية جديدة، هذه الذات تكون جديرة بدراسة الوضع القائم وتحليله واستيعابه، فلا يمكن تغيير ظروف العبودية إلا بدراسة روح هذا المجتمع الصناعي. ونعني بهذا: مجمل العوامل التاريخية الطبيعية الاجتماعية السيكولوجية و السياسية ... فالذات التاريخية الجديدة لابد وأن تدرك مستجدات القمع ومنه تغييره، و أول ما تقوم به هو تحرير الغريزة، الأخلاق والذكاء، لأن الوعي إذا تحرر سيكون جديرا بالقيام بالثورة، أما " الغباء فيجعل الفرد يعيش حياة سعيدة رغم أنه يعيش وسط المدافع والصواريخ العابرة للقارات والنابالم ..." (**حسن**، 1993، **صفحة** 214) لذا يعتقد فيلسوفنا أنه يمكن أن تقوم ثورة ثقافية قبل أن تقوم ثورة سياسية واقتصادية ولعل المقصود بذلك هو تحويل الفن إلى وجهة سياسية، لأن الفن يساهم في تحرير الوعي البشري، كونه يسعى إلى تجاوز ما هو قائم لإعطاء صورة أو رؤية عما ينبغي أن يكون وبهذا يبعث روح الرفض في الذات البشرية بفتح أبواب جديدة أمام الحرية والتحرر. يضرب لنا ماركيوز مثالا عن هذا يتجلى في الموسيقى السوداء التي يقول عنها: "استطاع السود أن يهدموا بموسيقاهم الجديدة عرش السيمفونية التاسعة وأن يمنحوا الفن طابعا حسيا وغير متسامي له مباشرته المرعبة التي تحرك وتكهرب الجسد ... إن الموسيقى السوداء هي أساسا موسيقى المقهورين التي تبين إلى أي مدى قامت الثقافة العليا" (**ماركيوز، الثورة والثورة المضادة**، 1973، **صفحة** 116). الفن لا يحاكي ولا يقلد، بل يعقل العالم ويضبطه ففيه تلتقي المخيلة، الحساسية، الذكاء والإبداع وليس هناك فنانا آليا، بل كل مبدع ينطلق من واقع عيني معاش ليؤسس واقعا آخرا أو عالما آخرا يتجاوز به ما هو معطى.

يعتبر ماركيوز الفن كإيديولوجية الطعن في الإيديولوجية القائمة بمعنى أن الفن يمكن أن يخدم أغراضا سياسية، إذ

يتصدى لمختلف أغاليط الساسة، ويقول ماركيوز بأن هذا العمل الثوري للفن: "يتجلى في الطريقة التي يتم بها تجميع الكلمات وترتيبها وتحريرها من استعمالها اليومي المعتاد لسمياء الكلمة، الصورة والصوت وخلق واقعا آخرا مسالما عن الواقع القائم، ثورة خيالية دائمة، انبحاس تاريخ ثان في قلب الاستمرارية التاريخية" (**ماركيوز، الثورة والثورة المضادة**، 1973، **صفحة** 224). والفن حسب ماركيوز هو احتجاج ضد الواقع وهو يؤدي مهمة سياسية، إذ يمكن له أن يهدّد القانون والنظام القائم (Marcuse, Le Marxisme soviétique, 1963) فاللغة التي نحتاج إليها هي لغة مختلفة عن لغة النظام القائم وعلى هذه اللغة أن تكشف عن آليات السيطرة والخداع، إذ تحمل أوسع المعاني وهي ثورية لا امتثالية والمهام الملقاة على عاتقها تكمن في فك اللثام عن أذان الذين خدّروا أنفسهم بل قتلوها عن طريق منتجات الجهاز الصناعي بمختلف أجهزته. فاللغة الجديدة في نظر ماركيوز عليها أن تخلق ألفاظها بذاتها وأن تصنع أو تبدع ذاتها بذاتها ولهذا تتاح لها الفرصة لردم وهدم الموروث التقليدي القديم الذي فرضته إيديولوجية التصنيع.

يلخص ماركيوز هذه اللغة في مختلف الفنون التشكيلية، الآداب والموسيقى وفي التقاليد الشعبية واللغة الزنجية، ولغات الأعراق المهمّشة والمضطهدة .فاللغة الزنجية مثلا هي، لغة الرفض لأنها تختلف عن لغة النظام القائم التي مسحت من أدمغة الأفراد مصطلحات الثورة والرفض. رأى ماركيوز أن الطلاق الذي وقع بين الفنون والواقع هو الذي أدى إلى انحراف العقل عن مبتغاه الأصلي الذي هو تحقيق السعادة واستكمال إنسانية الإنسان. نحن اليوم بحاجة إلى الفن، فن يعبر عن تجربة الجسد والروح بوصفهما عناصر فعالة وليست مجرد أدوات عمل لا قيمة لها ويقول في هذا ماركيوز: "أن الكلمات، الأصوات، الأشكال والألوان تعدو الشكل الجمالي وبذلك تتحرر وتنعتق برسم بعد جديد للوجود)...(إنها معجزة الأسلوب التي هي القصيدة أو الرواية أو اللون أو القطعة الموسيقية..." (**ماركيوز، الثورة والثورة المضادة**، 1973، **صفحة** 116) الفن إذن بهذا الشكل يعد تعبيرا عن الرفض الشامل، الرفض لعادات وتقاليد وطقوس المجتمع الصناعي الحديث لأنه يقتحم التاباوات (les tabous) أو المحرمات التي أوجدها الجهاز الإنتاجي وينتهكها. فالفن ليس تقليد الواقع كما هو حرفيا، بل هو يعقل الواقع ويضبط أهم الميزات السلبية التي تسكنه، ثم يسعى لتجاوز الواقع المزري، لذا نجد فيلسوفنا يقول أن: " الموسيقى السوداء صراخ العبيد وسكان الفيتو وعناءهم فهذه الموسيقى تحي من جديد حياة رجال ونساء السود وموتاهم، إنها جسد والشكل الجمالي فيها هو حركة الألم والضنك والاتهام..." (Marcuse, Vers la Libération au - delà de l'Hhomme Unidimentionnel, 1969, p. 37). ولكن هذه الموسيقى الثورية التي تحمل هزات تبعث الروح الثورية في الأفراد تفقد مضمونها الرافض بمجرد ما تنتقل إلى البيض على حد تعبير ماركيوز، بحيث تصبح مجرد ذوق فني يغيب عنها الروح الثوري.

هكذا إذن يبقى مصير الفن عند فيلسوفنا مرتبط بمصير الثورة، لكن رغم هذا يبقى المطلب الأساسي للفن هو النزول من السماء إلى الأرض مما يعني أن الفنان لا ينبغي أن يعزل نفسه عن الواقع، يأمره ماركيوز بالنزول إلى الشارع ليذود عن القضايا العادلة ويدافع عن الأبرياء في كل بلدان العالم، كما ينبغي له أن يقف إلى جانب الأعراق والأقليات المضطهدة، وعليه أن يبعث الأمل في نفوس الفئات المقهورة.

ب- التوجيه العقلي للصناعة (نحو عقلنة الصناعة)

يرى ماركيوز أن الحساسية الجديدة تعطي الأولوية لعوامل الحياة على عوامل الموت والتدمير: " فالنجاح العلمي والتقني أدى إلى الاستغلال اللاعقلي للفرد ولكن يمكن أن نضع حدا لهذا الأخير" (Ambacher, 1969). وهذا عن طريق توجيه العلم والتقنية لخدمة مصالح الإنسان.

يقوم المجتمع الصناعي الحديث على ثنائية الإكراه والتدمير من أجل تحقيق الرفاهة والتبذير في حين أن هذا النظام جدير بتحقيق حياة رغدة لكل الأفراد دون مساس أبعاده، وهذا يتم عن طريق " التوجيه العقلي للعمل أي: باحترام اختيار المهن على حسب الأذواق والمتطلبات الطبيعية لكل شخص " (Ambacher, 1969, p. 73). فمشروع ماركيوز هو مشروع حضارة غير قمعية، أين تتحرر الغرائز ويكون التنظيم الاجتماعي خاليا من كل بعد سيطراتي (Masset, 1969)، فماركيوز يعتقد أن جيل الحداثة يجب أن يقوم على إعادة تنظيم قوانين العمل، إذ لا ينبغي أن يحس الفرد بإكراه من مهنته، فهو لا يقول بإلغاء العمل، ولكنه يرفض العمل الحتمي أي: فرض مهنة ما على الفرد دون أن يتوافق معها روحيا ويقول ماركيوز: "بتحويل العمل إلى موضوع حقيقي للذة ليبيدية عوضا أن يعتبر حاجة ضرورية أو مفروضة..." (Masset, 1969, p. 73) بمعنى أنه لا يريد أن يكلف الفرد ما لا يطيقه " لأن الاقتصاد الاستهلاكي وسياسة رأسمالية الاحتكار نحتت للإنسان طبيعة ثانية تربطه بالصورة السلعية على موضة ليبيدية وقمعية. فحاجة التملك والأكل وتسيير مختلف الآلات تبدو أنها مفروضة على الفرد..." (Marcuse, Vers la Libération au - delà de l'Hhomme Unidimentionnel, 1969, p. 22) ولعل السياسة التي تحكم المجتمع الصناعي الحديث وجهت الصناعة - العلم - التقنية إلى الهدم والتدمير، وقضت على القوى الليبيدية للإنسان أو قلصتها، في حين يؤكد فيلسوفنا أنه: " من الضروري أن نكرر أن العلم والتقنية هما أسس وأعوان التحرر..." (Marcuse, Vers la Libération au - delà de l'Hhomme Unidimentionnel, 1969, p. 23) ، لأن التقنية كانت في البداية وسيلة لتحرير الإنسان من قيود الطبيعة، ثم امتدت هذه السيطرة إلى الإنسان ذاته باعتباره خيطا في

نسيج الطبيعة. فالصناعة إذن يمكن أن تكون محايدة تخضع لخدمة مصالح الفرد، وليس لإتلافه.

وماركيوز لا يدعو هنا إلى العودة إلى الوراء ليجر المجتمع الحديث إلى عصور ما قبل التكنولوجيا، بل يدعو إلى المزيد من العقلنة، عقلنه التكنولوجيا أو تحريرها من القوى اللاشخصانية، التي توجهها توجيها إيديولوجيا، بحيث تسفك دماء الأبرياء وتسحق الضعفاء من أجل إثبات جدارتها المحلية والخارجية.

خاتمة

لعلّ منفذ ماركيوز إلى الماركسية يتجلى من خلال اكتشافه الثغرة المتمثلة في الوفرة والتبذير وهو الأساس الذي بدأ منه ماركس ولكنه درسه من زاوية مختلفة، فماركس اهتم بفائض القيمة الذي هو ربح صاحب المال على حساب عرق العامل الذي طواه الطوى، إذ يجد نفسه مجبرا على العمل حتى يضمن استمرارية حياته، أمّا ماركيوز دخل إلى الماركسية من ثغرة أخرى وهي: المعاناة وظهور القمع المضاعف في ظل نظام حقق الوفرة وخلق حاجيات جديدة للفرد، ولكن بقيت فلسفة ماركيوز فلسفة محضة تحلق في السماء ولعلّ هذا راجع كما قلنا إلى غياب البعد الاقتصادي في تحليله، الشيء الذي أدى إلى إحداث شرخ بين النظرية والممارسة وهي الإشكالية الأساسية، التي بنت عليها مدرسة فرانكفورت نظريتها النقدية الاجتماعية .

جاء فكر ماركيوز فكرا سلبيا يرفض كل ما هو موجود ويدعو إلى هدمه وهذا جنون، فلابد وأن يكون للهدم حدّ ولابد أن تكون في الحضارة الصناعية المتقدمة بعض الميزات الإيجابية. ولكن رغم ذلك يبقى ماركيوز فيلسوفا ذو وزن في مدرسة فرانكفورت، حيث استطاع أن ينقد المجتمع الرأسمالي الذي قال عنه أنّه: " يخفي تحت العقلنة السطحية لا عقلنة ملحوظة " (**حسن**، 1993، **صفحة** 228)، وهذا من خلال غسل الدماغ البشري وتنويمه، كما جاء بعبارة " إنسان البعد الواحد " التي خصّ بها المجتمع الصناعي خاصة الرأسمالي منه، فنحن لا نطلب من المفكر أن يصوغ لنا قانونا عاما ولا نكلّفه أكثر من طاقته، فالنقد الذي مارسه ماركيوز يعبر عن رفض الوضع القائم، وهذا ما جعل ماركيوز يكتسب شعبية كبيرة بين أوساط الطلبة والمثقفين وحين سؤل عن سرّ اعتناق الطلبة لفلسفته أجاب: "أكتب وأبرع، ألقي محاضرات، أتحدّث إلى الطلبة (...)هي الصفة العادية للنشاط بالنسبة للمثقف في الولايات المتحدة، لأن الوضع في هذا البلد لم يكن أبدا وضعا ثوريا، بل لم يكن حتى وضعا ممهدا للثورة إذن: مهمة المثقف هي التربية الجذرية سندخل في أمريكا عصرا تنويريا جديدا" (**Palmier, 1969**) لكن ما يؤاخذ على ماركيوز هو المبالغة في النقد إلى درجة رفض كل ما هو قائم ودعا إلى هدمه، ونحن نعلم أن الهدم الجذري يقتضي قرونا وأجيالا عديدة لإعادة البناء، والنزعة التي تدعو إلى هدم كل شيء من دون أن تأتي لنا بالبديل ما هي إلاّ نزعة فوضوية، بل عبثية يمكن أن تجر الإنسانية إلى الحضيض.

تضارب المصالح

❖ يعلن المؤلف أنه ليس لديه تضارب في المصالح.

الهوامش

Ambacher, M. (1969). Marcuse et la Critique de la Civilisation amèricaine. Aubier- Montaigne.

Herbert Marcuse. (1968). Fin de l'Utopie. (Liliane Roskope et Luc Weibel، المترجمون) Paris، France، Seuil.

Marcuse, H. (1963). Le Marxisme soviétique. Paris: Gallimard.

Marcuse, H. (1969). Vers la Libération au - delà de l'Hhomme Unidimentionnel. (J. Baptiste.Grasset, Trad.) Paris, France: Minuit.

Palmier, J. M. (1969). Sur Marcuse. Mlhouse(Haut Rhin): Union-Rencontre.

Pierre Masset. (1969). La Pensée de Herbert Marcuse. Montpellier: Presse de J F- Editions- Impressions.

حسن محمد حسن. (1993). النظرية النقدية عند هربرت ماركيوز (الإصدار ط1). بيروت، لبنان: دار التنوير.

فرانسيس ستونرسوندرز. (2003). الحرب الباردة الثقافية (الإصدار ط3). (طلعت الشايب، المترجمون) القاهرة، مصر: المجلس الأعلى للثقافة.

فريق الاختصاصيين. (1993). المجتمع والعنف (الإصدار ط3). (إلياس زحلاوي مراجعة الأستاذ أنطوان مقديسي، المترجمون) بيروت، لبنان: المؤسسة الجامعية للنشر.

مصطفى الدباغ. (1998). المرجع في الحرب النفسية (الإصدار ط1). بيروت: المؤسسة العربية.

هربرت ماركيوز. (1984). الإنسان ذو البعد الواحد (الإصدار ط4). (جورج طرابيشي، المترجمون) بيروت، لبنان: دار الآداب.

هربرت ماركيوز. (1973). الثورة والثورة المضادة (الإصدار ط1). (جورج طرابيشي، المترجمون) بيروت، لبنان: دار الآداب.

كيفية الإستشهاد بهذا المقال حسب أسلوب APA

المؤلف حدة بعنون (2021)، أزمة الإنسان المعاصر عند هربرت ماركيوز، مجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، المجلد13، العدد 01، جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف، الجزائر، ص،ص:251-260